العدوان على العراق مناسبة هامة
لتعميق الرؤية الحضارية العربية الإسلامية

لا شك إنَّ الظروف السابقة التي إستغرقت أغلبية سنوات القرن العشرين ، شهدت اِنقساماً موضوعياً ساد الصف القومي العربي المناضل ضد الغرب ، فقد كانت الحركة القومية العربية الحديثة ـ وكان مظهرها الرئيس الحركة القومية العربية التي تقودها ثورة 23 يوليو المصرية بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ـ تتكون من تيار عربي علماني وإسلامي ، وحاولت سلطة المملكة العربية السعودية في مرحلة نشاطها لتأسيس الحلف الإسلامي مقاومة الحركة القومية العربية الحديثة ، وبالتالي تمكنت عبر أموال المساعدات المستحلبة من الإيرادات البترولية ، والإنسجام مع الرؤية السياسية الغربية ، من سحب قوى إسلامية من الصَّف القومي العربي الإسلامي ، وتجيير عملها لصالح القوى الغربية المضادة لمصالح الأمة العربية . وكان الإنسجام عوامل تسود بين الرؤية السعودية والرؤية الفارسية بقيادة الشاه الإيراني تجاه مجمل التطورات القومية العربية ، كما بينته الوثائق والوقائع لفترة حكم الشاه الإيراني . ولكن الضغط الأمريكي اِستمر ناشطاً حتى بعد هزيمة الحركة القومية العربية الحديثة عسكرياً في عام 1967 ، وتحقيقها النصر السياسي من خلال اِستيعاب الرؤية الساداتية ونظام السادات . واِحتلال ثاني عاصمة عربية : بيروت من قبل الإسرائيليين الصهاينة . وعندما نقول الضغط الأمريكي فإننا نعني به ذلك الضغط : الجانب السياسي العملي المتماهي بالرؤية الصهيونية ومشاريعها السياسية المرسومة للمنطقة . ولا ريب إنَّ الدور الأمريكي/الإسرائيلي في الحرب العراقية ـ الإيرانية واضح جداً ، سواء من خلال صفقات السلاح ، أو القبض على ماكفارلين : مسؤول الأمن القومي الأمريكي آنذاك في طهران ، سوى مجرد مؤشِّرين على ذلك الدور العدواني والعملي والاتجاه العام للأحداث وفق رؤية الطرف الصهيوني : الأمريكي والإسرائيلي .

ولكن سنوات العقدين الماضيين ، من ذلك القرن العشرين ، قد شهدتا تطورات سياسية وفكرية من شأنها تقليص التناقضات الرئيسة بين الأطراف المكونة للحركة القومية العربية الحديثة : العلماني والإسلامي ، وقد كان للحركة الإسلامية في فلسطين وحزب الله اللبناني دورٌ ملموس في تطوير الموقف السياسي وتقارب الرؤية السياسية ، كما كان لتعميق الرؤية القومية التي نمتّها نزعة الرجوع الأكثر اِتساعاً للتراث العربي الإسلامي والحملة الإيمانية في العراق ومؤتمرات الحوار القومي ـ الإسلامي وندوات مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت . . . كان لها الدور الملموس في تقليص تلك التناقضات بين الطرفين ، وتحويل المواقف السياسية لطرفيهما إلى رؤية سياسية مشتركة في العمل والسلوك ، وجاء الموقف الأمريكي بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001 ، والغزو الأمريكي لأفغانستان ، والتدخل في الشؤون التربوية للدول الإسلامية ، ومحاربتها ـ كذلك ـ للرؤية الإسلامية في العالم ، وغير ذلك الكثير ، ليعطي مضمون هذا التحول عمقاً سياسياً وفيراً .

كانت الطبيعة التكوينية للقيادة الأمريكية : المحافظون الجُدد . المسيحيون المتصهيونيون . العولميون المتسلطون . العسكريون اليمينيون المتطرفون من ذوي نزعة الإستخدام الأقصى للعنف الهمجي ، والتصرف الأسرع في إستخدام السلاح على طريقة رعاة البقر المتحدرين من تكساس ، وبالتالي زيادة الأموال المخصصة للميزانية العسكرية . وأصحاب الرؤية اليهودية في الإدارة الأمريكية التي تشكّل إيباك كمنظمة صهيونية : رؤية فكرية ومواقف سياسية ، من ناحية ، وإشتراكهم مع الرؤية الصهيونية في مرحلتها الشارونية : بإعتباره رجل السلام في المنطقة ، كما يقول جورج بوش الإبن ، تجاه المنطقة العربية وإصرارهما على الرؤية الشرق أوسطية وتصهيين فلسطين كلها عبر الإستيطان والإجلاء المبرمج للفلسطينيين ، قد أسهمت في تعميق الرؤية الأيديولوجية الأمريكية على صعيد المنطقة العربية وجوارها في المحيط الإسلامي . . . كانت الطبيعة التكوينية لهذه القيادة قد عمقت من نزعتها الأيديولوجية الشمولية ضد الطموحات الوطنية والقومية العربية الإسلامية .

وجاء العدوان الأمريكي على العراق ليدفع بهذا العمق العربي في الرؤية والموقف السياسي المشترك خطوات أخرى ، لاسيما وأنَّ المراجع الإسلامية كلها ، بمن فيهم مَنْ هم في الأزهر الشريف ، والعلماء في الجزيرة العربية : بلاد الحرمين الشريفين ، وفي بلدان الخليج العربي ، والمراجع الثقاة في العراق لا سيما في النجف والكاظمية وكربلاء ، وقبل هذا وذاك موقف الشعب العراقي الذي غالبيته ممن ينتمون إلى المسلمين ، وينتمي بكليته إلى مفهوم الحضارة العربية الإسلامية ، قد أكدوا على موقف العراقيين الذي ينسجم مع الرؤية الإسلامية في الدفاع عن حياض المسلمين ويستحق كل الدعم والمساندة من الأشقاء المسلمين الأقربين والأبعدين ، في العالم كله : جواراً وأطراف مترامية . وكان الدعم الشعبي من الدول الأسيوية كلها ، ناهيك عن كل الشعوب العربية ، ما خلا العوائل العربية التي تسكن الساحة الكويتية التي لم تعبر بشكل علني عن مواقفها السياسي ، التي رآها المشاهدون على الشاشات المرئية ، تغني عن كل تعقيب وتعليق مستفيضين .

لقد كانت الحرب الدفاعية العراقية ضد الغزاة الأمريكيين ـ البريطانيين قد أعادت مقولات تراثية تدلَّ دلالة واضحة على الرؤية الحضارية العربية الإسلامية : لقد برز الكفر كله للشرك كله ، وفق القول النبوي حول منازلة الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، مع الذي إقتحم الخندق بفرسه محاولاً مهاجمة المسلمين في ديارهم وحياظهم : عمرو بن ود العامري . المثال التأكيدي على هذه الحقيقة ، ولكن ما يعزز هذا المثال الواضح ، هو تطور الموقف العربي الإسلامي من الموقف الفردي إلى الجماعي العراقي هو أبرز معالم هذه المرحلة ، وإحدى مواقف الحق . والمواقف الدفاعية للعراقيين هو لحظة ضوء تاريخية أعادت للأذهان الجماعية الغزوة المغولية لكي يتكشف موقف جورج بوش الرئيس الأمريكي ، هو موقف هولاكو الآخر الذي إستهدف بغداد بالحرق والتدمير والتخريب . مثلما أعاد للذاكرة التاريخية المعاني الإسترقاقية للحروب الصليبية في العدوان على فلسطين العربية ، والحروب الإستعمارية ضد المشرق العربي في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، التي قال عنها

الجنرال اللنبي : القائد العسكري البريطاني أمام قبر صلاح الدين الأيوبي الراقد في حضرة التاريخ العربي الإسلامي الزاهر بدمشق : ها قد عدنا يا صلاح الدين .

ولكن ما يلحظه المرء المتابع للحرب العدوانية على العراق ، والمزهو بطابع المواجهة للمشروع الأمريكي الصهيوني للمنطقة ، هو غياب مظاهر التضامن مع الموقف الوطني والعربي والإسلامي في عاصمتين إثنتين وهما تل أبيب وطهران على وجه التحديد ، ونحن في صبيحة اليوم الخامس للعدوان الغربي ، وإذا كان الموقف في تل أبيب هو الأمر الطبيعي بسبب جوهري تكمن حيثياته إنَّ نتائج هذه الحرب العدوانية تصُّب في خدمة كيان الاغتصاب الصهيوني من الألف إلى الياء ، مما يجعل الحديث عنه نافلاً . ولكن ما يثير الاندهاش هو الموقف السياسي للحكومة الإيرانية التي دأبت على تسيير المظاهرات المليونية ـ كما تقول ـ لأسباب أقل هولاً وكارثية بالنسبة للرؤية الإسلامية ، فهل جاء ذلك عفوياً ، أو بسبب الحقد القومي الفارسي على الرؤية العربية الإسلامية ؟ ! .

وهل لذلك علاقة بما ذكره قائد قطع الحربية التابعة لحاملة الطائرات {إبراهام لينكولن} والمتزاحمة في مياه الخليج العربي : الأدميرال كيلي في غرفة الحرب ، الذي هو ليس مسؤولاً عن تلك ((القطعة العسكرية المتطورة في المعدات التقنية)) فقط ، وإنما هو المسؤول أيضاً عن كل القوات البحرية الأمريكية والحليفة في الخليج العربي كله ، الذي نقلته إحدى الصحف العربية التي تصدر في ((لندن ـ العاصمة البريطانية)) يوم 2003/3/18 . . . يقول هذا الضابط رداً على سؤال يتمحور حول الموقف الإيراني : هل يعتبر إنَّ إيران التي وضعها الرئيس بوش مع العراق وكوريا الشمالية في ((محور الشر)) والتي تشرف على شواطيء الخليج كله ، تشكّل خطراً على قواته ؟ ، أجاب : ((لا نعتبر أنَّ إيران تشكّل تهديداً . إنها تملك شاطئاً طويلاً في شمال الخليج ولها سفن تجارية وحربية في مياهه الدولية وفق القوانين الدولية . نلتقي [! ؟] على نحو روتيني قوات إيرانية في البحر ، وهذه اللقاءات في الغالب تجري في شكل جيد ونتوقع أنْ تظل هذه اللقاءات كذلك)) أي يجري تنسيق شامل بين الطرفين ((الغريمين)) بصدد الدولة العراقية ، يذكّرنا بموقف إيران إبّان العدوان الأمريكي على أفغانستان . ومعلوم إنَّ جهاز الأمن القومي الإيراني هو الذي يحدد الموقف السياسي الإيراني تجاه العراق ، وهو الذي يشرف على سياسة القوى السياسية ((العراقية)) التي تؤيد الرؤية الفارسية الإيرانية بصدد سياستها على العراق ، أما موقف المرجعية الخامنئية فهو مجرد إصدار بيانات تتسم بلغة الصراخ في تغطية على الموقف السياسي الإيراني ، لا سيما وإنَّ هذه المرجعية تختص بالعمل خارج إيران ، ولا تشمل رؤيتها كل علماء الداخل ومراجعها الإمامية .

من المعلوم إنَّ مراجع الرؤية الإمامية العظام ، خاصة ممن يتمتعون بدرجة الأعلمية ، وبالتالي يعَدُّ بعضهم المرجع الأعلى للطائفة في العالم كله : كالسيد على حسين السيستاني ، وكذلك السيد محمد سعيد الحكيم ، والسيد حسين الصدر ، قد أصدروا فتاوى واضحة وحاسمة ، دعوا من خلالها : ((المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الجهاد وإلى مقاتلة الأمريكيين المعتدين)) وقد عدَّ السيد السيستاني ، فوق ذلك ، إنَّ الواجب الشرعي يقضي بـ((أنَّ تقديم أي نوع من أنواع

العون والمساعدة للمعتدين يعَّد من كبار الذنوب وعظائم المحرمات يتبعه الخزي والعار في الحياة الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة)) . كما كان السيد الحكيم أوضح في موقفه الشرعي ـ وهو من كبار الفقهاء الإماميين ـ حين دعا ((المسلمين جميعاً إلى جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم وأنْ يكونوا يداً واحدة بوجه هذا العدو الحاقد كي يكون الله سبحانه في عونهم ورد المعتدين إلى نحورهم مذمومين مدحورين ، كما نحذر كل مَـنْ تسول نفسه التعاون مع أمريكا عدوة الشعوب من لعنة الله تعالى ونقمة الشعوب الإسلامية ولعنة التاريخ بما فيها من خسران الدنيا والآخرة)) . أي إنه يتحدث عن دور الوحدة في الموقف التعبوي والإستراتيجي واجب ضروري في مثل هذه الظروف .

ولكن الموقف الإيراني السياسي الرسمي كان بعيداً عن هذه الرؤية السياسية الإسلامية المخلصة . نتبين ذلك من خلال منع أية مظاهرة شعبية إيرانية لرفد أشقائهم العراقيين بالرؤية الإسلامية بالدعم المعنوي . وفوق ذلك ينطلق باقر الحكيم رئيس ما يسمى بالمجلس الأعلى في تصريح متلفز للمنار ، ومن العاصمة الإيرانية : طهران في مساواته بين الموقف الغربي المعتدي الذي قدم من على بعد آلاف الأميال للغزو والتوضع في المنطقة وتنصيب الحاكم الأمريكي على العراق العربي المسلم ، وبين المدافع عن وطنه وشعبه والرابض ، كالأسد ، فوق أرضه للدفاع عن عرينه ، إضافة لإقدامه على إعتقال العشرات من الشباب العربي الأحوازي من العشرة آلاف من الذين تظاهروا نصرة لأشقائهم العراقيين ، كما حدث بمدينة الأحواز العربية في يوم السبت الموافق 2003/3/22 ، ناهيك عن منع سلطاتها للمتطوعين الأحوازيين للدخول إلى العراق ، وإعتقال مَنْ يقبضون عليه وهو يحاول التسلل إلى العراق .

ومما يؤسف له شديد الأسف إنَّ حزباً جهادياً مثل حزب الله اللبناني الذي يلتزم فقهياً بالمرجعية الخامنئية موجهاً مذهبياً لقادته ، رفض دعوة القوة الوطنية اللبنانية للتظاهر ضد الغزو الأمريكي البريطاني ، بذرائع متعددة وحجج مختلفة ، إنَّ الحزب هذا مدعو لتعميق الرؤية والموقف الحضاري العربي الإسلامي ، من خلال المشاركة الفعلية في مناوئة الموقف الصليبي ــ الصهيوني الأمريكي ــ البريطاني ـ ولا ندعوه للمشاركة في الدروع البشرية لحماية مصالح المسلمين في العراق ، أو إرسال العناصر الإستشهادية إلى العراق وهو من بين أقل واجباته الجهادية ــ والإنخراط العملي في تلك المعركة المشرِّفة التي دعا فيها العلماء الإماميون الواعون والأعلمون إلى الجهاد فيها ومقاتلة الغزاة الأمريكيين المعتدين .

إنَّ العدوان الغربي : الأمريكي ـ البريطاني على العراق هو حلقة في سلسلة العدوان الصليبي ــ الصهيوني على الأمة العربية الإسلامية ، ومَـنْ لا يجاهد بالموقف السياسي العملي مع العراق : الشعب والرؤية والثبات على المباديء الحضارية العربية الإسلامية ، سيحاسبهم التاريخ مهما كانت مراهناتهم السياسية ونتائجها المحتملة ، بمحكمته العادلة مهما طال أمد التضليل والتشويه .

3003 / 3 / 24

باقِر الصرَّاف
كاتب عراقي مقيم في هولندا